

المرأة الجزائرية في كتابات الرحالة إيزابيل إبرهاردت

Algerian woman in the writings of Isabelle Eberhardt .

نادية رايح سيسطة

جامعة 20 أوت 1955 م سكيكدة (الجزائر). n.rabahsista@univ-skikda.dz

تاريخ النشر: 2022 / 06 / 14

تاريخ القبول: 2022 / 05 / 09

تاريخ الإستلام: 2022 / 01 / 15

ملخص:

حظيت المرأة الجزائرية على غرار العالمية باهتمام الكثير من الأدباء، وتهدف هذه الدراسة الى تقصي صورها في نصوص الآخر تحديدًا الكاتبة الروسية إيزابيل إبرهاردت. وإن كان هناك أمل لوجود صور مشرقة للمرأة الجزائرية في كتابات الآخر الغربي، فإن ما وصلنا اليه كان تأكيدًا من ذلك الآخر على نمطية صورة الأنا الشرقية، حرصًا منهم على تكريس مبدأ أفضلية الغرب مقابل دونية الشرق وتخلفه.

الكلمات المفتاحية: أدب الصورة؛ المرأة؛ الشرق؛ الغرب.

Abstract:

The algérien women like all women in the world have received much interest from writers. This study aims to investigate their images in other texts, specifically in the writings of the Russian writer Isabelle Eberhardt.

And if there is really bright images of Algerian women, because all what we have reached was an emphasis from the west on the stereotypes of eastern women. In order to perpetuate the west principle of its superiority as opposed to the inferiority and backwardness of the east

Keywords:

Imagologie ; women ; west ; east.

1. مقدمة

شكّلت علاقة الأنا(الشرق) بالآخر(الغرب) محور دراسة الكثير من النقاد والباحثين، ويمكن رصد تجلياتها، وتقصي حقائقها من خلال العديد من الموضوعات الجزئية، وتعتبر موضوعة الإنسان (المراة/الرجل) أكثر ما شغل الدارسين في هذا المجال؛ كونه محور الكون.

حظيت المراة عبر التاريخ باهتمام الكثير من الأدباء، وتمكنت المراة الجزائرية من افتكاك مكانة مميزة عبر كافة الأجناس الأدبية محليا وعالميا، والجدير بالاهتمام هو البحث عن صورتها التي رسمها الآخر الغربي، ولذلك اخترنا نصوص الكاتبة الروسية ايزابيلا برهاردت، التي تحدثت بإسهاب عنها إبان الاحتلال الفرنسي.

ينقسم الآخر(الغرب) من خلال هذه الدراسة الى شقين، الأول شكّته الكاتبة كونها آلة تصوير تلتقط الأحداث، مع مراعاة حمولاتها الإيديولوجية، ومحاولة معرفة مدى ارتباطها بإمبراطورية التفوق الغربية، وثانيهما: يمثّله المستعمر الفرنسي، الذي أسهم في نسج وتحريك أغلب القصص، واستظهار نقاط الثبات والتحول في مواقف الكاتبة من تواجده .

سأحاول من خلال موضوعة المراة الإجابة على مجموعة من الأسئلة تدور حول حقيقة نظرة الغرب الى الشرق من خلال جزئية المراة، هل هناك تسامح في رصد هذه الصورة؟ أم أن موقف الغرب ثابت اتجاه الشرق؟ فكيف برزت لنا من خلال أعمال " إيزابيلا " وما الصورة التي رسمتها لها في تلك الحقبة ؟ وماهي حدود تعاملها مع الآخر ؟ وكيف كانت نظرتة إليها ؟ ، هل رأى فيها أسراراً تستحقّ العناء ، أم أنّ أمرها لا يتجاوز حدود المغامرة والتزوة العابرة ؟.

تحتاج كل دراسة الى منهج مناسب يساعد على تحقيق الأهداف المسطرة، ولقد اخترنا في هذه الدراسة المنهج الموضوعاتي، وذلك لمرونته في التعامل مع النصوص الأدبية، وانفتاحه على المناهج السياقية والنصية؛ فهو : " منهج بلاهوية ، أو ميدان نق دي هلامي تتداخل فيه مختلف الرؤى الفلسفية، والمناهج النقدية، والظواهرية والوجودية ، التأويلية البنيوية ، النفسانية ، ... التي تتضافر فيما بينها ابتغاء التقاط الموضوعات المهيمنة على النصوص في التحامها بالتركيب اللغوي الحامل لها. (وغليسي،، (1430 . 2009م)، صفحة 147)

ومن أجل طرح منهجي للموضوع، ستكون لنا وقفة مع جدلية الأنا والآخر (الشرق/الغرب) ، ثم نتقصى الصور التي أوردتها الكاتبة حول المراة الجزائرية، لنختم بالنتائج المتوصل إليها من خلال هذه الدراسة .

أولاً: جدلية الأنا والآخر:

إنّ رصد تجليات الآخر، هو حديث عن أحد أنشطة المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن منذ عقود، وهذه الدراسة بدأت مع "جان ماري كاريه" j . m. carré (1994, p. 59) " (pageaux,؛

صار فضول معرفة الآخر منظماً، ويُدرس انطلاقاً من زوايا خاصّة به، فوّضته ليكون مجالاً معرفياً مميّزاً يُعرف بـ "أدب الصورة" "l'imagologie".

تُصرّف الانفعالات المكبوتة اتّجاه الآخر من خلال هذا المجال، أو تُسوَّغ أوهام المجتمع الكامنة في أعماقه، كذلك تمعي الصور الخاطئة عن الشّعوب، مُؤسّسة علاقات لا يعترّهما تشويه. (مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، 2000م، صفحة 144)

لا يستطيع الباحث تخطي مسألة الإصلاح والتّشويه التي تميز أدب الصورة، على اعتبار الصّورة: "رؤية فردية أو جماعية، تمتزج فيها عناصر فكرية وعاطفية. في الوقت نفسه موضوعية وذاتية، فلا يمكن لأيّ أجنبيّ أن يرى بلدا كما يحلو لسكانه الأصليين أن يرى. ومردّد ذلك أنّ العناصر العاطفية تطغى على العناصر الموضوعية" (و. بيشوا، 2005م، صفحة 109).

ثانيا: نماذج للمرأة الجزائرية في كتابات ايزابيل ابرهاردت

2. 1. صورة ياسمين.

يُعتبر الحديث عن "ياسمين" حديث عن بطلة قصّة مفعمة بالتحوّلات والتناقضات، هو غوص في أسئلة تطرح نفسها، ولكنّ أغلبها يأبى التجلّي لأنّ أبرز سماتها "كونها أزليّة" . هو إذن خوض في دستور الحياة بتشريعاته التي تراوحت موادها بين العقل والدين والعرف.

كانت فتاة لا يتجاوز عمرها الأربعة عشر ربيعا، تعيش صحبة أحلامها البريئة. قرب مدينة "تمقاد". حياة رتيبة، تصحب كلّ يوم قطيعها إلى سهل حيث: "يتجمّع صغار رعاة القبيلة"، غير أنّ ياسمين كانت تفضّل العزلة (...). تقضي كلّ أيامها في الصّمت (...). بلا تفكير متبعة أحلاما غامضة غير محدّدة، يتعدّد التعبير عنها بكلّ اللّغات الإنسانية (...). أحيانا كي ترقّه عن نفسها تلجأ إلى قطف بعض الزّهورات الغريبة التي أبقت عليها الشّمس في عمق الوادي النّاشف، وهي تدندن أناشيد عربيّة " (eberhardt, 1986, p. 44).

ألقت هذه الحياة التي احتضنت أحلامها البسيطة، ولكن يبدو أنّ نظام الأشياء لا يخضع لأيّ قانون، لأنّها رجعت في أحد الأمسيات لتجد أهلها زوّجوها لـ: "محمّد"، وكان أعورا، حادثة هزّت كيائها، وزعزعت براءة الحلم داخلها، حيث: "بكت ياسمينه أولا لأنّ محمّد لعور كان أعورا وذميما، وثانيا لأنّ هذا الزّواج جاء مفاجئا ولم يكن في الحسبان" (eberhardt, 1986, pp. 45, 46).

تورد الكاتبة مفارقات كبيرة تداولت العزف على أوتار حياة "ياسمين"، فهذه التي كانت تستأنس بجمال طبيعة "تمقاد" في عذوبة طفولية، أتى يوم انقلب فيه كلّ شيء، كانت طفلة بريئة تحبّ اللّعب في حرية تامّة، صارت على وشك الزّواج (المسؤوليّة، القيود، أسوار البيت ...)، وعشقت الجمال الذي تكتنزه الطّبيعة، وكانت جزءا منه لكنهم زوّجوها بزميم، وأعور "شكّل هاجسا مريبا لها".

كان محمّد مصيرها المحتوم، قدرا لا يقبل النقاش، وهذا عندما يكون الحديث فقط عن حتميّة تزويج الفتاة من غير الاكتراث لرأيها، لأنّ الواقع العربيّ يحكي إيديولوجيّة قوامها سلطة الفوقية للرجل المستخلصة من الحكم العربيّة القديمة حيث:

"الرجل هو ظلّ الإله. الملك هو مرآة الله. هناك في الفوق توجد: سلطة، قوّة، إله.

الإله يعني العلة والسبب لكلّ شيء.

نستبعد بذلك:

أولا: أن تكون السلطة أنثويّة.

ثانيا: أن يكون ملكوت السلطة ملكوتا أنثويا ("النجار، 1989م، صفحة 64).

وُفقت الكاتبة في نقل معاناة الفتاة الجزائرية تحت سلطة الرجل، حيث لا مجال لرأيها هذا من جهة، أما عن جعلها محمد أعورا وذيما، فهذا ما لا تبرره الحجج، لأنه أمر يقصده الغربيون للاستهزاء بالرجل العربي، فالعنى هنا حضر مكسواً بأبعاد وحمولات إيديولوجية تنزع إلى سلخ الشرق من قيم الحضارة والتطور والجمال بأبعاده المختلفة، وهي صفات يحتكرها الغرب دائما لنفسه. وملاحظ هذا المشهد الاستهزائي الانتقاصي تتضح بقول الكاتبة: "أعطيت للور كما كان يمكن أن تعطى لأي مسلم آخر، هكذا كان نظام الأشياء، لم يكن هناك أي داع لأن تكون سعيدة فوق العادة ولا أن تكون متألّمة كذلك" (eberhardt, 1986, p. 64).

تبالغ الكاتبة من خلال ما سبق بإفراغها الزواج من أهم ما يُنتظر منه، وهو السعادة التي تكون أساسا في بناء الحياة لأن: "علاقة الرجل بالمرأة تستند إلى قاعدة أساسية هي الاستجابة لنداء الحياة، وإرادة الحياة، وانتصار الحياة، واستمرار الحياة وطبائع الأشياء في الحياة، إنها رسالة الوجود الإنساني في معناها الشامل، والقول بغير ذلك يعني عبث وجدان الحياة، وتعتز وجدان الحياة، واللامعنى في إرادة الحياة والشك في الهدف من الحياة". (رزيق، 2001م، صفحة 14)

يصلح هذا القول لأن يكون قاعدة يمشي وفقها كلّ فرد، ولكن الكاتبة جعلت من الزواج الجزائري يحتفي بشطره الثاني، فكانت حقيقته عبث بوجدان الحياة .

تواصل الكاتبة سردها الأحداث، حيث أعدت "ياسمينه" جهاز عرسها، ولكن مرض أخيها جعلها ترجع إلى الرعي، وحينها حاولت إعادة ربط أحلامها حيث: "كانت تلاحق أحلامها الغامضة، أحلاما عذراء بدائية، والتي لم يغيّر الزواج قدر قلامة في سلوكها" (eberhardt, 1986, p. 46).

صوّرتها الكاتبة موشحة بأحلام بريئة، لا تعرف عن الزواج شيئا، وإن اقترب موعده فلا شيء يجول بخاطرها غير أحلامها الطفولية العذراء .

عادت إلى الرعي، وبعودتها تلك تغيّر الحقل الذي كان يحتضن أحلامها، وجرت على ترابه أحداث فيها من الغربة الكثير وبدايتها: "كان وقت ذاك ببائنة ملازما أولا شاب منتدبا في المكتب العربي، قدم حديثا من فرنسا، كان قد طلب المجيء إلى الجزائر لأنه سئم حياة الثكنة التي قضاه مده سنتين بسان سير، كان ذا روح مغامرة وحاملة". (eberhardt, 1986, p. 47).

بدأت الجزائر لهذا الملازم نفسا جديدا في الحياة، وطعما لذيذا قد تتعدّد أطباقه، رأى فيها حرية وانفراجا من قيود الثكنة العسكرية ليجد في الصيد راحة ورفاهية لا مثيل لها، هذا طبيعيا عندما يتغيّر المكان، وأما ما يستحق التمهيص فهو تنوع ما اصطاده، وتنوع وسائله .

فكر يوما في الاستراحة بعد جولة متعبة، فاستقرّ به المقام قرب واد، ليشكل هذا الأخير نقطة لبداية أحلام من نوع خاص، ولكن يبدو أنّ أحلامه تُحقّق، ولا تلبث أن يعثرها الملل فتترك المجال لغيرها مادام هذا الفرنسي يتقن كيفية الحصول على ما يريد، واستوقفته رغبته هذه المرة عند حدود "ياسمينه"، ليتحدّ عندها اغتصاب الأرض باغتصاب المرأة، ويكون "جاك" ممثلا جديرا للعلاقات الكولونيالية التي ما برحت الكاتبة تنسج ملامحها على طول قصصها لأنّها علاقات: "بطبيعتها انفلاتا للمشاعر الجنسية: فالرجل الأبيض يعتقد ويتصرف على أساس جميع نساء المستعمر مباحات له". (طرابيشي، 1977م، صفحة 10) حدث يوما وأن شاهد "ياسمينه"، ليتحدّ معنى الاسم بها، فشددت انتباهه كما تفعل ورود الياسمين بالناظرين، ولكن ما

الطريق إلى قطعها، تقول الكاتبة واصفة أول لقاء بينهما: "اقترب من ياسمينه وهو غير عارف ولو كلمة بالعربية قال لها بالفرنسية أو يوجد ماء هنا ؟".

ودون أن تجيب، نهضت ياسمينه، ومضت جزعة، فارة تقريبا .

لِمَ أنت خائفة مِنِّي ؟ لن أمسك بسوء، قال وقد استأنس بهذا اللقاء، ولكّتها فرّت من عدو عرقها المهزوم وابتعدت، وتتبعها الضابط طويلا بنظراته " . (eberhardt, 1986, p. 47)

كان هذا أول لقاء لفتاة بدوية بريئة بفرنسي غريب عنها، وهي ردّة فعل طبيعيّة تكون نتيجة لأيّ واحد يلتقي جلاده: فالخوف، الفرار التجنب أمور عادية بدرت من فتاة بريئة وبدوية، ولكنّ الضابط الذي استأنس بجمال الجزائر، لم يكتف إلا بالحصول على " ياسمينه "، لأنّها في نظره امتداد طبيعي يرى أحقيته في الحصول عليه والتمتع به فقد : " بدت له ياسمينه رشيقة وهيفاء تحت أسماها الزرقاء ، بمحبّاتها المسمر ذو الصّفاء البضاوي، أين تتلأل العيون الكبيرة السوداء للجنس البربري في إبهام خفي، بتعبيرها الدّكين الحزين، وهي تناقض نافية الانعطاف الشّبقي والطّفولي في آن واحد للشّفاة المخضبة بلون الدم، والسّمكة قليلا، تحيط بهذا الوجه الفاتن حلقتان حديدتان، علقتا في شحمة الأذنين الوضّاحتين " . (eberhardt, 1986, p. 47-48)

ظهرت "ياسمينه" أمام "جاك" ديكورا جميلا يستهويه أبسط ما فيه، أمّا جمالها الفتان وإشراقها الملائكية، فذاك ما لن يقدر على التّفكير في غيره حيث : "كان كلّ شيء فيها مطبوعا بسحر يكاد يكون صوفيّا والذي لم يستطع الملازم الأوّل جاك أن يعرف تفسيراً لطبيعته . مكث طويلا هناك . جالسا على الصّخرة التي غادرتها ياسمينه، كان يفكر في ياسمينه وفي كلّ جنسها " . (eberhardt, 1986, p. 48)

أيقظت فيه " ياسمينه " الرّغبة في النساء، فرأى فيها مكسبا آخر ربّما لم يكن ليخطر بباله قبلا، جنس نسج الغريب فيه الجمال فتعلّق بها الذي : " تربّى على صرامة معهد دينيّ في الرّيف أكسبته عبر سنواته بسان سيّري روح جبلي منغلّق نسبيا على روح العصر، ميّالا للتمرد وللهتكّم، شكّاك لا يرجع عن رأيه، وهذا ما يأخذه بسرعة إلى التّداعيات المعنويّة . إذن كان يعرف كيف يرى ويفسّر الأشياء بنفسه، وينحاز بصدق إلى انطباعاته الخاصّة، لم يكن يعرف حول الجزائر إلا الملحمة الرائعة للاجتياح والدّفاع . البطولة المبذولة باستمرار من هنا وهناك على مدار ثلاثين سنة " . (eberhardt, 1986, p. 48)

يُلاحظ أنّ " جاك " الفرنسي تربّى تربيّة دينيّة في وسط ريفي، وهو نفس محضن " ياسمينه "، ولكن هل حقيقة الدّين والوسط الرّيفي شكّلا تميّزا في شخصيّته، وكيف برز ذلك في علاقته مع الآخر؟.

تعلّق بـ " ياسمينه " لأنّها شكّلت أربحا تعبق به أرض الشّرق، فتتساوى الأنثى المرأة والأرض، وتتحد المطامع الغربيّة عندما يكون الأمر إثبات عراقية الرّجولة في عرقهم، فأراد أن يجعل أوّل خطوة لإبراز اهتمامه الكبير بها إذ : " لم يستطع أن يقاوم رغبته في شراء حبّات حلوى من أجل ربط تعارف مع فتاته الصّغيرة، والتي أسره ظرفها الغريب بطريقة لا تُقاوم، والذي أمضى الأسبوع لا يفكر في شيء سواه " . (eberhardt, 1986, p. 49)

تبعث هذه الفقرة على الحيرة أكثر من أيّ شيء آخر، في الوقت الذي فكّر فيه " جاك " شراء ماقد يحقّق له السّعادة الكبرى . و" ياسمينه " فتنة النّساء . حبّات حلوى، صحيح أن الغربيين أهل للمادة، ولكن أن تصل قيمة زهرة بريّة إلى هذا الحد، فهذا ما تتجاوز به الكاتبة نطاق العلاقات الإنسانيّة، إلى مجال الإيديولوجيّات

الغربية، التي طالما حرصت على التمايز العرقي ليكون حسب ما ذهب إليه " ادوارد سعيد " : " كلّ أوروبيّ كان، فيما يمكن أن يقوله عن الشّرق ،عنصريا عرقيا، إمبرياليا، وإلى درجة كليّة تقريبا، عرقيّ التمرکز (سعيد، صفحة 215)"

وجاء قول الكاتبة عن ردّة فعل "ياسمينه"، "الأرض"، "التّاريخ"، "الشّرق"، "الجنوب"، "الأنثى"، الخاضع لنزوات الغرب "الرّجل": "بمجرّد أن رأته نهضت في عدائيّة من جديد، متعوّدة على فظاظة واحتقار موظّفي وعمّال الآثار، كانت تمقت كلّ ما هو مسيحي، لكنّ جاك كان يبتسم ولم يكن يبدو عليه أنّه يريد بها سوء. بل كانت ترى أنّه شاب ووسيم جدا في بدلته البسيطة من الكتّان الأبيض" (eberhardt, 1986, p. 50).

بدأت "ياسمينه" تغير موقفها من الغزاة، وصارت تدرك الخبيث من غيره، ولكن على أيّ أساس حدث هذا؟ هل الابتسامه والجمال كافيان لذلك؟

شرب "جاك" الماء من قربة "ياسمينه"، بعد أن فهمت طلبه بالإشارة، وكانت تلك الشّربة كقطرة ماء في حلق تائه في الصّحراء، لأنّ عطشه الحقيقي أكبر، ولن يرويه إلا "ياسمينه". قدّم لها بعد الماء: "حفنة من قطع الحلوى الوردية دون أن تتجرأ على مدّ يدها قالت في خجل تصحبه نصف ابتسامه، وهي ترفع عينها لأوّل مرّة في وجه الرّومي: واش نوا؟

ما هذا؟

إنّها لذيدة، ردّ ضاحكا من جهلها، لكن سعيدا لأنّ الجليد ذاب، قضمت قطعة من الحلوى ثم فجأة وبنبرة فظّة قليلا قالت: شكرا، لا لا، خديها كلّها" (eberhardt, 1986, p. 50).

نريد فقط أن نكون منطقيين، إذا كانت "ياسمينه" قادرة على أن تحب، أو لم تكبر

على الاستدراج بحبّات الحلوى؟. هذا من جهة، وكيف تخلّصت من خوفها ومدّت يدها إلى شيء تافه وإن اعتبرته الكاتبة غريبا عنها؟.

يشهد القارئ من خلال هذه القصّة صيرورة حضارة، وأقطاب قسّمت العالم ليس من باب الجغرافيا إلى شرق وغرب، وإنّما حسب ما يقول "جورج طرابيشي": "وفي الواقع. أنّ المسألة مسألة تاريخ لا مسألة جغرافيا، والتّاريخ لا يعرف غير التبدّل والتحوّل قانونا، ولا يُقرّ للأرض إلا بالكروية، لا بالانقسام إلى جهات أربع. ولولا التاريخ، ولولا قانون التطوّر المتفاوت للتّاريخ، لما تكرّس وجود غرب وشرق (...) والشّرق لم يحتلّ مكانه في الشّرق نزولا عند حكم الجغرافيا، وإنّما نزولا عند حكم التّاريخ. والحال أنّ حكم التّاريخ بعكس حكم الجغرافيا، قابل للاستئناف إن لم نقل للنقض. والبرهان القاطع أنّ ثنائية الغرب والشّرق لم تظهر إلى الوجود إلا في العصور الحديثة". (طرابيشي، 1977م، صفحة 191)

ومادامت الجزائر من صنع التّاريخ، ففرنسا لن تجد بُدا من الخروج عن قوانينه التي جعلت لها الحقّ في امتلاك الشّرق المتدنّي، والغارق في الظّلّمات ولهذا فالغربي: "يعتقد أنّه يُكمّل مهمّة يملها عليه كونه حاملا لقيم الحضارة والتّاريخ، وله الفضل الشّاسع في إضاءة الظّلّمات الفاضحة أمام المستدّمر. وإذا ما كان هذا الدور عمل له المكاسب والتقدير، فإنّ ذلك لمن العدل. فالاستدّمار (مشروع) في كلّ معانيه ونتائجه، ومن جهة أخرى، ليس هناك من عقدة طالما أنّ العبوديّة مسجّلة في طبيعة المستدّمر" (ميمي، 2007م، صفحة 22).

يوصل خيال الكاتبة نسج أحداث هذه القصة الغريبة، فيبعد حلوى " جاك " السحرية، ومحاولاته المتكررة للتقرب من هذه البدوية نجح ، وفي هذا الصدد تقول الكاتبة:

" لم يبق إلا القليل وياسمينة لم تعد تخشى من جاك، كانت في كل مرة تجيء من نفسها لتجلس بجانب الضابط، وهي تحاول أن تفهمه أشياء كثيرا ما كانت تغيب عنه معانيها رغم مجهودات الفتاة. وعندما تدرك بأنها لن تفلح في إفهامه تطلق عنان ضحكها". (eberhardt, 1986, p. 51)

كانت "ياسمينة" تحب العزلة ، لا يغريها حتى اجتماع الأطفال في الوادي، وتشعر في ذلك بلذّة فريدة، زوّجوها ولم يعن لها ذلك شيئا، حتى ويوم الزّفاف على الأبواب، بقت نفسها البريئة على حالها مستأنسة بأحلامها البريئة، زوّجت للأعور ولم تستطع حتى الرّفص، أو إبداء رأيها وفي الأخير، ولأنّ سلطة الوالد لا ردّ لها إلا قضاء الله وقدره، رضيت بمصيرها، وهذا ما كان شائعا في تلك الحقبة حيث : " لم تشهد الفترة الاستعمارية تحولا ملحوظا في وضعيّة المرأة الجزائرية، إذ بقيت التقاليد مهيمنة بقوة عليها (...) لم تظهر امرأة استطاعت أن تتحدّى التقاليد إلى حدّ الخروج عليها أو تحطيمها، وعلى أيّة حال فإنّ فرصة اتّخاذ هذه الخطوة قد أُتيحت لها خلال حرب التحرير " (بامية، صفحة 205). هذا من جهة، أضف إلى ذلك أنّ وجود المستعمر أسهم في إحكام الحصار عليها لا انفلاتها، وهذا ما نجده عند عايدة أديب بامية : " وجود المستعمر أعطى للرجال المبرر لإحكام قبضتهم على المرأة، كإجراء اتّخذوه لحمايتها من العدو المحتلّ ويعزى " جاك بيرك " الوضعيّة الستاتيكية . الساكنة . للمرأة خلال فترة الاحتلال إلى تمسّك أكبر من طرف الجزائريين بالعادات والتقاليد، حيث يذكر مايلي : " وتماشيا مع الجمود الاجتماعي الذي كان يسود تلك الفترة ، قامت المرأة بدور المحافظ على ماضٍ أبقت بهغيرة كبيرة (...) وهكذا مرّت فترة الاستعمار مثل غيرها بدون أن تمسّ المرأة " (بامية، صفحة 206).

يظهر من خلال قول " عايدة أديب بامية " ضيق نطاق تحرّك المرأة الجزائرية، ممّا يجعل الصّورة التي رسمتها لها الكاتبة تبتعد كثيرا عن الواقع، وإن تعاملنا مع " ياسمينة " وفق ما تقتضيه الأحوال الاجتماعية والسياسية والثقافية لتلك الفترة نقول :

- إن كانت "ياسمينة" قد خافت من " جاك " أوّل مرّة خصوصا وهو الفرنسي، ألم يكن أخرى بابنة العادات والقيم أن تخبر والدها عن الذي يترصدها ؟.

- أما كان أخرى بها أن تبقى مع الرّعاة الآخرين أو تنقطع عن هذه المهنة ؟.

لم تتحرّج الكاتبة من خلق ردود فعل لا يحتاج المرء إلى الكثير حتى يعرف زيفها، والقصد الحقيقي منها، عندما استأنست البريئة بالدّثاب، بل صارت الأميّة أستاذة تعلّم العدو أبجديات سيطعتها بها في آخر الطريق، صارت تعرف الحب مع زارعي الكره والعنف، خصوصا وأنها تدرك وظيفته، وقبلها لم يكن التّفكير حتى في غير الأعور يختلجها. فالكاتبة تذهب هنا مذهب غيرها في القول بأفضليّة الغرب لأنّ " جاك " هنا كان بمثابة زارع آدميّة في نفس المهائم!!!.

نعود إلى أحداث القصة، والتي تقول بتوطّد العلاقة بينهما، وعندما أراد " جاك " قمة ما يصبو إليه -

الجنس - أجابته : " أنت روميّ كافر وأنا مسلمة، تعلم هذا حرام عندما أن تتزوّج المسلمة مسيحيا أو يهوديا، ومع ذلك أنت وسيم وطيب أحبّك (...) أسلم إنّها بسيطة جدا ! ارفع يدك اليمنى هكذا، وقل معي " لا

اله إلا الله محمد رسول الله . ببطء متّخذا الأمر لعبة بسيطة، ومن أجل إرضائها أعاد تلك الكلمات الرّخيمة الجليلة " (eberhardt, 1986, p. 52).

استسهلت الكاتبة خلق تلك الظروف، لتوشيح مسار كُتِب له الغموض، ولا يبرّره إلا أعماق لازالت متيقّنة من دونيّة الآخر الشرقي، فكان الذي جمعهما غريب، وتوّج مسار القصّة بأن كان أغرب بكثير.

"جاك" = إعجاب - حب - امتلاك - شبه اكتفاء - (يقظة روح الغربي فيه) - إمكانية الفراق = نبيل فرنسا حسب رأي الكاتبة.

"ياسمينه" = خوف البدويّة - حب - استسلام - حلم بإمكانية الاستمرار = ليست ياسمينه (قيود العادات والتقاليد، أرض الانتفاضة، تاريخ البطولات، أسطورة الدفاع ...).

أُعِلِم "جاك" النبيل بعد فترة بتعيينه في الجنوب الوهراني و: "كان يتوصّل إلى اتّخاذ قرارات نهائية : مرّة يفكر في المجازفة بإطلاق العنان للفضيحة وما ينجرّ عنها من اختطاف وزواج مرّة أخرى يفكر في استقالته، والتخلّي عن كلّ شيء من أجل ياسمينته، كي يصبح في الحقيقة مبروكا، ذاك الذي تحلم أن تصنعه منه ... لكن فكرة تتدخّل دوما لإيقافه : هناك في "الأردان" أب عجوز وأم قد ابيضّ شعرها سيموتان حزنا لا محالة إذا ما ابتهما "الملازم الأوّل جاك الوسيم" - كما ينادونه في البلد - يقوم بكلّ هذه الأشياء التي تراود ذهنه الملتب، في الساعات البطيئة لليلي المضيئة " (eberhardt, 1986, p. 54.55).

أحبّ "جاك" "ياسمينه" ولكن فضيحة العلاقة بها، استقالته، إضافة إلى "والدين" يحبهما ولا يريد تخيب أملهما فيه، أشياء فُكر فيها قبل اتّخاذ قراره وسنرى ما سيكون من أمره : هل سترك كلّ شيء من أجل "ياسمينه"، التي رمت كلّ شيء خلفها من أجله، وكما أوردت الكاتبة فقد نسيت خطبتها لآخر ونسيت : "الحاج سالم أصبح عجوزا مقعدا. أمّها حبيبة وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها لم تعد إلا مجرد مومياء هرمة بسبب اعتكافها على الأعمال الشاقة للكوخ، وحقل الشعير الصّغير (...). أخوان يكبرانها سنّا. " (eberhardt, 1986, p. 44). نسيت العائلة ولكن تذكر "جاك" عائلته فدفعت الثمن لوحدها، أقنعها في البداية بتميّزه عن الآخرين فظفر بما يريد، وكانت له وسائله في ذلك، والتي لم تغب عنه نجاعتها في الظفر أخيرا بما سيريده، إذ أقنعها بحتميّة رحيله بعد نقاش طويل ارتقى فيه "جاك" سلّم الحجاج، ففي الأوّل قالت له "الياسمينه": "أنت لم تعد تحبّ ياسمينه، خليلتك، امرأتك، خادمك، تلك التي أخذت منها عذريتها. أنت من يريد الرّحيل ... وتكذب مرّة أخرى حين تقول بأنك قريبا ستعود ... لا لن تعود أبدا ، أبدا ، أبدا " (eberhardt, 1986, p. 56).

لم يرد "جاك" رغم انكشاف لعبته أن يترك ذكرى سيّئة في ذهن ياسمينته، وحاول أن يستغلّها حتّى في آخر اللحظات، وهي تتوسّل إليه كي يبقى معها فيجيها : "... لا تطلي مّي المستحيل، لي والدين عجوزين هناك بفرنسا، وسيموتان غمّا ... آه ! الله يعلم كم أرغب في إبقائك إلى جانبي إلى الأبد . كان يحسّ بشفتها الدافئتين وهما تلامسان بنعومة يديه، وفي غمرة تدقّ دموعها الممزوجة ...، أيقظت في نفسه تلك الملامسة أفكارا أخرى، وعاشا مرّة أخرى لحظة من الغبطة العميقة جدا، والمطلقة تماما، لم يعرفا شيئا لها حتّى في سعادتهما الهادئة " (eberhardt, 1986, p. 57.58).

تُظهر هذه الفقرة نزوع المستعمر الدائم إلى تبرير مواقفه وأعماله، وإضفاء طابع البراءة عليها اتّجاه المستعمر، يقول ألبير ميهي : "والاستدماري وقد أنهض هذا النظام الأخلاقي الجديد حيث هو السيّد والبريء

بالتعريف، إنّما يقوم أخيرا بالغفران لذاته، بل ويحبّ عدم التشكيك بهذا النظام من قبل الآخرين، وعلى الأخصّ المستدّمر". (ميمي، 2007م، صفحة 80)

لا أجد للتعليق في هذا الموقف أفضل ممّا قاله "إريك ماير" "Eric Meyer":

"وهكذا يغدو الشّرق مؤنثا، كائننا مستكينا معرضا لنزوات الذكر بضمن اقتصاد قصصيّ مستنبت من إعادة ترتيب الثّنائيات الجنسيّة، على سبيل خدمة التمييز الرّئيس بين الشّرق والغرب، إذا يقوم اندفاع القصّة بتفعيل عمليّة استعمار الشّرق، حيث يخرق الأنا المذكّر الأوروبي الاستحوازي فضاء الشّرق المؤنث، وهكذا تصبح الهيمنة على الآخر المؤنث، المحجب صورة من صور خضوع الشّرق للمبدأ الغربيّ" (الدعي، 2006م، صفحة 85).

تثبت القصّة - على قلّة ما بقي منها من أحداث - أفكارا ورؤى كُتِب لها الميلاد فيما سبق، ولكنها لازالت تحتاج إلى نقاط ضوء أخرى لتقويتها، ورسم طريقها بوضوح.

يتلخّص ما بقي منها فيما يلي: بعد رحيل "جاك" بعث إلى "ياسمينّة" برسالة مع صديق له، كان "صباحيّا" قرأها لها وهي تحفل بوعود العودة، وحبّه الأبدّيّ لها، وهي نفس الوعود التي حملتها مع الضابط "لجّاكها"، وبعد فترة نُقل "الشّعاني" إلى الصّحراء لتقطع أخبار "جاك" عنها، وأمّا عن صداقة "الشّعاني" لـ: "جاك" فهي طريقة تتّخذها فرنسا لنيل مرادها، وعلى كلّ فطرقها في ذلك كثيرة.

رحل "الشّعاني" فانقطعت أخبار "جاك" عن "ياسمينّة"، تزوّجت بعدها "صباحيّا" آخر غنيا وتركت الأعرور، أحبّها "عبد القادر" وأقام الأفراح يوم زفافها، ولكن ثارت ثائرتة عندما اكتشف سرّها، وأرغمها على الاعتراف بالجاني، فألقت التّهمة على "الشّعاني"، لأنّه رحل من جهة، وحتّى لا يفضح سرّ علاقتها مع المستعمر، خفّف رحيله وطأة الصدمة لأنّ عاره لن يُشاع، كان يضربها أحيانا وأخرى يشفق عليها ويعاملها كما يجب أن يعامل الزّوج زوجته، أمّا "ياسمينّة" التي أثارتها حبّات حلوى "جاك" خادعها، فلم تحرك فيها معاملات "عبد القادر" شيئا، مع علمها بحبّه الكبير لها، وهذا ما يجعلها عرضة لغضبه، حُكِم بعدها على زوجها بالأعمال الشاقّة نتيجة لتورّطه ضدّ رئيس سام، نفدت نقودها بعد فترة، لتختار القرية السوداء وتمتحن الدّعارة . (eberhardt, 1986, p. 62). 65)

تبالغ الكاتبة كعادتها، أو لم يكن أخرى بـ "ياسمينّة" بعد أن تركها "جاك"، ووجدت من يسترها ولا يطمع إلا في قلب منحته من قبل لمن لا يستحقّه أن تمتعت "جاك"، وتحترم على الأقلّ رجلا تفهمها، هذا إن كان حقيقة من يفهم هذه الحال، وفي تلك الفترة؟

أبقت "إيزابيل" على طيف "جاك" داخل "ياسمينّة"، وبذل أن تكره في اسمه وجنسه رجال العالم أظهرته عندها وكأنه رجل زمانه في الوفاء؟

كيف اختارت طريق الدّعارة؟، وللإشارة التّفي هنا لا ي طال الدّعارة ووجودها في الجزائر، لأنّ كلّ المجتمعات تظهر بها هذه الآفة، وإنّما السؤال عن اتّجاه البطلة صوبها، هل الفرنسيّ الرجل الوحيد الذي تتوب معه نفسها؟... يتضح أنّ الكاتبة لازالت تسعى إلى ترسيخ فكرة مفادها: تميّز الغرب ورجولته، ويعني هذا بالضرورة السّعي وراءه، وإلا كيف نفسّر تعلق "ياسمينّة" بـ "جاك" حتّى بعد تركه لها، فتعلّقها ذاك هو تعلق الشّرق المتدنّي الذي لا يُحكّم عقله، ويجري وراء أوهامه بالغرب التّموذج والمثال للتقدّم. وحاولت الكاتبة

التحجج بالظروف الاقتصادية كسبب دفعها إلى امتهان الدّعارة، وذلك على غرار بعض المحللين الذين رأوها أحد أهم الأسباب في ممارسة هذه المهنة. (طنّوس، 2006م، صفحة 16)

ولكن هل كلّ امرأة فقيرة تسلك طريقها ؟، وإن كانت تخاف العودة إلى قريتها بسبب العار ألم يكن - إن كانت تقيم اعتبارا حسب الكاتبة للشّرف - أهون عليها من عار المتاجرة بالجسد والقيم الإنسانية؟.

احتفظت بذكرى من خانها، ولم تجد نفسها - التي تقيم مكانا كبيرا للذكريات - مكانا ل :

"عبد القادر"، فقصت عليها الذكريات حتّى صارت : "في غاية الهزال، بوجنتها ذات الاحمرار المكفهر وعينيها الغائرتين، اللّامعتين بشكل غريب، وشفتيها المسترقتين، المشدودتين في ألم، كانت تبدو وكأنّها كبرت بعشر سنين (...). غالبا ما كان صدرها يهتزّ على وقع سعال حاد ومستمر، ويلوّن بالأحمر مندبليها". (eberhardt, 1986, p. 66)، أمّا "جاك" نبيل فرنسا الذي يحسن الحصول على ما يريد، فيبدو أنّه لا يكثرث للذكريات، لأنّ أحلامه تتقن التجدّد، وتحسن التكيّف في كلّ مرّة : "جاءها مع زوجته الباريسيّة الرقيقة الجميلة (...). تذكّر جاك ما تعود على تسميته الآن بالبدويّة الحب البريء، حتّى أنّه كلّّم زوجته عنها (...). كنت آنذاك مراهقا حالما ومتحمّسا، آه لو كنت تعرفين يا عزيزتي تلك الأفكار المثيرة للسّخرية، والتي كنت أحملها، لقد كدت أتخلّى عن كلّ شيء من أجل تلك المتوحشة... لو كنت استسلمت لذلك الجنون، ترى ما كان سيحدث لي، الله يعلم وحده ! آه كم يبدو له الآن سخيّا، ذلك الملازم الصّغير الصّادق المتأجّج الذي كان". (eberhardt, 1986, p. 68).

اعتبر "جاك" الجزائر كتابا للمغامرات، كلّما خلص من صفحة طواها، ليجدّد حلمه وآماله بالاكتشاف، وكانت "ياسمينه" البدوية من أوائل ما طوى، لتأتي خمس سنوات وقد أمّحت صورتها من مخيلته، وصار تذكّرها مدعاة للسّخرية والسّخافة، بل جنونا لأنّه كاد أن يستسلم لمتوحشة، كانت في الماضي تشكّل الجمال والبراءة ولذّة طعم الحياة، وصارت الذكرى والسّخرية والوحشيّة، وهذا دليل على مفاهيم تنخر بأعماقه طويلا لتثبت حقيقة الغربي فيه، وحبّ التملّك والسيطرة على كلّ شيء يرغب فيه، وبعدها يتركه للذكرى والعذاب دون مبالاة، وهنا يحضرني قول ل : "تيان راي" raytien "امتلاك الرّجل للمرأة... نهاية حبّه... وامتلاك المرأة للرّجل... بداية حبّها" (عبيد، صفحة 24).

حدث هذا فعلا مع "ياسمينه" إذا ابتعدنا عن الإسقاطات الخارجيّة، وتجاوزنا الخلفيات الإيديولوجية للكاتبة .

نعود إلى أجواء القصّة، فأنشاء تجوال "جاك" مع زوجته، أراد أخذها إلى القرية السوداء، أو كما تُعرف جنّة الجنود، ثمّ سبقها مستطلعا المكان تاركا زوجته مع زوجة صديقه، وحدث أن شاهدته "ياسمينه" فصاحت فرحا برؤيته، ولكنّه أجابها والخوف ينتابه من إثارة الفضيحة : "أصغي إليّ... لا تعتمدي عليّ منذ الآن. كلّ شيء انتهى بيننا، أنا متزوّج وأحبّ زوجتي، دعيني ولا تفكّري أبدا في رؤيتي من جديد، انسيني هذا أفضل، بقيت تنظر إليه ... مشدوهة، جاحظة العينين، إذا ذاك صحيح ! وانطفأ آخر أمل يبقها على صلة بالحياة، لقد نسيتها، تزوّج ويحبّ الرّوميّة زوجته ... !، وهي، هي من أحبّته حتّى النّخاع، لم يبق لها إلا أن ترقد في زاوية وتسلم روحها ككلب منبوذ". (eberhardt, 1986, p. 70)

اختصرت الكاتبة قيمة الحياة لدى البدوية في الخائن، فجعلت أمل لقاء "ياسمينه" به بصيصا يبقى على جدوى الحياة داخلها، وهو الذي استغلها وكان نسيانه لها بداية حياة له، هل حقيقة يستحق كلّ هذا، أرجح أن

الكاتبة تريد تسويق فكرة مهمة وهامة في الوقت ذاته مفادها أنّ الشّرقي يبقى دائما متعلّقا بالغرب ولو قلّت حبال الوصال، لإحساسه بأفضليّته. فيما الغرب لا يأخذ منه إلا ما يفيد فقط .

أيقظت كلمات "جاك" ضياع العمر في نفس "ياسمينه"، وخسارة حبّها وحقيقة كان لا بد أن لا تنزع داخلها أبدا، لأنّها ستدفع الثمن لوحدها، وعندما تحاول الانتفاض سيكون الأوان قد فات : "لِمَ إذا جئت تبحث عنيّ بعمق الوادي، بدوارنا، إنّي كنت أعيش في سلام مع ماعزي وأغنمي ؟ لِمَ اتبعني ؟ لِمَ وظّفت كلّ ما عندك من حيلة وسحر لغوايتي، وجرجرتني وأخذت عذرتي ؟ لماذا أعدت معي غدرا الكلمات التي تجعل ناطقها مسلما، لماذا كذبت عليّ ووعدتني بأن تعود يوما وتأخذني إلى الأبد ؟ آه إنّي مازلت أحتفظ مع تمائي بالرسالة التي حملها إليّ الضابط الشّعاني (...) نعم لماذا ،أيّها الرّوم، يا ابن الكلب تجيء مرّة أخرى في هذه السّاعة، مع زوجتك الملعونة ثلاثا لتحترقني وتهزأ بي تابعا إياي حتّى إلى هذا الماخور الذي رميتني به، وتركتني كي أموت به " (eberhardt, 1986, p. 70.71).

نطقت فقالت الصّواب، ولكن بعد فوات الأوان، كان عليها أن تدرك ذلك قبل أن يفترسها ويرمي ما بقي منها للدّثاب، ليأتي في الأخير ويفكر في بعض النقود لإسكانها : "فكر أنّ قليلا من الذهب يكفي...فقدّم كلّ نقوده إلى ياسمينه (...) خذي قال...أنت فقيرة

ومريضة يجب أن تعالجي نفسك. خذي هذه النقود القليلة...والوداع" (eberhardt, 1986, p. 71).

أخذها في كامل براءتها وجمالها، وعنفوان الشّباب فيها ابتداء من حبّات حلوى، وتركها تكابد المرض والفقر والحزن والحسرة، وختم اللقاء بقطع نقود. لتكون تجارته لا تعرف الكساد، يشتري بحبّات حلوى، ويبيع بقطع نقود عندما يشاء .

صار نظام الأشياء على هذا النحو عند الذين يستأنسون بفوضويّتها، تركها تجتوّر حسرتها وألمها وعذاب الذّكري ومرارتها، لتطوي آخر صفحات حياتها بعد أن انكسر فيها نابض الحياة. على كلّ فهذه هي سياسة الغرب في الوصول إلى ما يريد لأنّه: "تحت شعارات مُدعاة مثل : العالميّة / العلمانيّة / الموضوعيّة / الديمقراطيّة / حقوق الإنسان...وبتوظيف مقتدر لمعطيات التقنية الحديثة، تعمل الحضارة الغربيّة على تشكيل ثقافات ومقولات ، وأنماط تفكير الشّعوب، والأُمم الأخرى بما يتناسب مع الهيمنة المطلقة للحضارة " المركزيّة " المستبدّة "(الحلاق، 1997م، صفحة 47)

2.2. صورة مباركة :

دفعنا التحيز الكبير من طرف الكاتبة للآخر الغربي قصّة "ياسمينه"، إلى البحث بين صفحات "إيزابيل" عن نماذج أخرى للعلاقات الإنسانيّة بين الضحيّة والجلاد، ولأنّ قصّة "الرّقيب" تبدو حافلة بها، سنخوض هذه التجربة النقدية علّا ما فيها يوحى بأنّ ما بين الشّرقي والغرب كثي، وكذلك نسبيّ.

يتّضح من خلال قصّة "النقيب" أنّ الطبيب الفرنسي "جاك" الذي قدم إلى الجزائر بدافع الواجب متخلّق ومثقّف، سريع التأقلم مع مناخ الصّحراء، وكان النقيب "مالي" رفيقا له، ومن بين ما قال له : "يجب على الأهالي أيّا كانوا تحيّة كلّ ضابط (...) عليك ألا تقرب هؤلاء الأقوام منك أبدا ، وأن تلزمهم حدودهم. الصّرامة ، بلا تخاذل...الوسيلة الوحيدة لإخضاعهم " (eberhardt, 1986, p. 162).

يظهر من خلال هذه الفقرة التّقيب "مالي"، - رمز للجهاز العسكري للمستعمر الفرنسي - وهو يلقّن الطبيب أبجديات الإقامة مع الغرباء، وأسرار السيطرة عليهم، حيث رسم له حدودا صارمة تقتضي إخضاع الجزائريين، وفي الوقت ذاته إبعادهم عن الفرنسيين، هذه هي قوانين اللعبة .

كان " جاك " حسب ما تصفه به الكاتبة مختلفا إذ : " كان تدهشه على نحو بغيض ، هذه اليد الموضوعة على يد الآخر ، وهذا التدخل في تصرفاته " (eberhardt, 1986, p. 163).

جاء إلى الجزائر، ومنذ الوهلة الأولى لم تكن ترقه تصرفات زملائه من الضباط، الذين يحاولون بسط نفوذهم عليه، وكنتم أنفاسه تحت ذريعة المحافظة على العلم الفرنسي، صورته الكاتبة لنا رجل مبادئ، بالإضافة إلى كونه طبيبا أتى لأداء مهمة نبيلة في الجزائر، قصد مساعدة مرضاها، وهو تصوير منها للوجه الحضاريّ الذي تدّعيه فرنسا، من حيث اهتمامها بصحة المواطنين، ووجود الأطباء لمعالجة المستعمرين حتّى في أقاصي الصحراء ، وكان انطلاق هذه الرسالة أولا: " كمبرّر إيديولوجي لبدايات أزمة الرأسمالية التقليدية ولذلك ظهرت بشكل مركّز في العشرينيات من القرن التاسع عشر (...) وارتبطت بشكل جليّ بالاعتبارات الدينيّة (نشر المسيحيّة)، ومقاومة الإسلام ". (بوطالب، صفحة 437)

تحمل الرسالة أبعادا دنيويّة أخرى ارتبطت بطبيعة الدول المستعمرة، والتي تظهر دائما رمزا للتّخلف والحيوانيّة، وحن الأوان لتحضيرها، فنجد هناك دعوات من خلال جريدة لوغلوب le globe إلى : " دعم استعمار الجزائر، واستصلاح الصحراء ، وتوطين الملايين من الفرنسيين في الجزائر، وقد وصفوا الاستعمار بأنّه : " يُدخل المدنيّة في الشّعوب البربريّة " لقد وُصفت الشّعوب في العالم اللّأغربي بأنّها ناقصة في قدراتها السياسيّة والثّقافيّة والحضاريّة (...) فاعتبرت أوروبا نفسها مسؤولة للقيام بدور تمديني للشرق (...) فالحضارة الغربيّة أُعْتُبرت خلاصة التطوّر وأُعْتُبرت باقي المجموعات والحضارات " بدائيّة " تعيش طور التوحّش والهمجيّة والقبليّة ، وشقّى أوجه الانحلال والتّخلف " (بوطالب، صفحة 438).

تدّعي فرنسا نشر الحضارة، وهي التي لم تدّخر جهدا في إخضاع الشّعوب (قتل جماعي، تجويع، انتزاع الأراضي، نشر الآفات ...) ، فكيف كان لـ " جاك " الضّابط الفرنسي أن : " يفحص مرضاه، مشفقا أمام كلّ ذلك البؤس، كلّ تلك المعاناة التي ينبغي عليه تخفيفها (...) غير أنّه ورغم ذلك الوضع وهذا التّصرّف الجديد بالنسبة لهم من طرف الطّبيب، لم يفتح الأهالي، ولم يشرحوا له صدورهم. قرون من الحذر والشكّ والعبوديّة تقف بينهم (eberhardt, 1986, p. 165).

إنّ عدم ارتياح الجزائريين وضع طبيعيّ، لأنّ الطبيب فرنسيّ، وإن كان طبيبا فإن ذلك غير كاف، كذلك حديثها عن غرابة هذه المهنة في أوساط الجزائريين أمر جائز نظرا إلى تلك الفترة، ولكنّ الذي يلفت الانتباه هو قول الكاتبة على لسان الطّبيب، بأنّ الجزائريين لا يعرفون إلا :

" اختبال الكحول والمتعة الآنيّة، وبأثمان زهيدة في الدّار العموميّة: هناك في ذلك النّطاق الضيق، كانت تنقضي سنوات حياتهم النشطة... ثمان مومسات باليات ذابلات يجلسن على المقاعد الحجريّة (...) هكذا كان ركن الحياة الشّخصيّة الذي يلجأ إليه أولئك الرّجال من أجل أمن الخبز والفراش يبيعون حرّيتهم، آخر الحرّيات الإنسانيّة " (eberhardt, 1986, p. 166).

تحدّث الكاتبة عن حال الجزائريين بالقرب من " جاك ". لا يعرفون إلا الخمر واللّهو، وكأنّ الصّحراء كلّها دعارة ولهو، ولم تحتضن بفضل كفاح رجالها وبطولاتهم ثورات لقنت العدو دروسا في حب الأرض وعشق

الوطن، كل هذا غاب عن " جاك "، فلم تدوّنه الكاتبة واكتفت برسم صور ربّما حظّها من الواقع لا يتجاوز احتمال تذكّرها، هي ظاهرة قابلة للانتشار في أي بلد، ولكن جعلها السّمة البارزة في الأوساط الجزائرية فذاك ما يوحي بمبالغة كبيرة للكاتبة، والتي تقوّي ما ذهبنا إليه سابقا في جعلها تنزع إلى ما خطّه الغرب عن الشرق عبر قرون من الزّمن وتقول أيضا: " واعتقد جاك في سداجة أنّه يشاركهم وجدانيا معاناتهم، ناسبا لهم الأحاسيس التي تمّده بها حياتهم ... واعتقد بأنّ احتجاجهم المستمر ضد أقدارهم، إنّما هو نتيجة لوضعيتهم المزرية ... ثمّ بعدها أُصيب باندھاش واضطراب لاكتشافه بأنّهم لا يعانون بسبب عيشتهم على تلك الصّورة...تبّا لهذه المهنة ". (eberhardt, 1986, p. 166).

تورد الكاتبة تدهورا أخلاقيا للمجتمع آنذاك، ثمّ تجعله من صميم اختيارهم، وليس محتوما عليهم للظروف القاسية التي يمرّون بها، بل هي مهنتهم وهذا ما جعل الطبيب يحترار، وكأنّ بلده لا يعرف هذه الظاهرة أبدا، وإنّما اكتشفها في الجزائر.

تحاول الكاتبة إظهار هذا الضّابط في صورة مختلفة، من حيث خيبة أمله في الدّور التمديني لفرنسا، وذلك من خلال قولها: " كان جاك قد حلم بالدّور التمديني لفرنسا، كان يعتقد بأنّه سيجد بالقصر رجالا واعين بمهمّتهم، مهتمّين بتحسين أوضاع من يتولّون إدارتهم ... غير أنّه وعلى العكس اكتشف بسرعة بأنّ هدف النّظام السّاري المفعول هو الحفاظ على الوضع الرّاهن، عدم إحائه بأيّ رغبة بأيّ أمل، خاصّة في مصير أفضل، ليس فقط أنّنا لا نحاول تقريتهم منّا، ولكن بالعكس نبعدهم ونبقي عليهم في الظلّ، هناك في الدرك الأسفل ... أن نبقي حرّاسا لهم لا أن نصبح مثقفين لهم " (eberhardt, 1986, p. 166, 167).

حاولت الكاتبة من خلال هذه الكلمات مُعاودة التّخفّي، وعدم كشفها لملاحم الغرب التي تنتابها، فحكّت على لسان " جاك " زيف ما تدّعيه الدول المستعمرة من تحضير الشّعوب، ولكنّها عملت على:

1 - تأكيد فكرة وجود ظاهرة الدّعارة لدى الجزائريين قبل دخول فرنسا، لأنّها لم تقل بأنّ فرنسا جلبتها أو على الأقل ساهمت في انتشارها، وإنّما ذكرت محافظتها على الوضع الرّاهن وكأنّها دُهِشت لوجودها بالجزائر.

2 - عدم قيام فرنسا بالدور الحضاري المنوط بها، وهذا جاء بعد الحديث عن الأوضاع الجزائرية المزرية، بمعنى اعتراف بدونية وتخلّف الجزائريين، وتجنّب تحميل فرنسا السبب في ذلك. وإنّما عتابها جاء بسبب عدم قيامها بما كان مُنتظرا منها قبل المعجى.

جعلت الكاتبة " جاك " يتميّز بسلوك على الأقل مغاير للفرنسيين الآخرين، وهذا ما جعل الأهالي يرتاحون له، لتجد سبل التعامل معه مجراها إذ: " شيئا فشيئا بدأ السّوفيّون يتعوّدون على هذا الرّومي، على هذا الضابط الذي لم يكن قاسيا، ولا متغطرسا، والذي يحدثهم وبسمة صادقة جدا تعطي مُحيّا، والذي يجلس بينهم، وبإشارة يوقفهم حين يريدون الوقوف لتحيتته عندما يُقِيل (...) وجدوا فيه العون على كلّ معاناتهم ". (eberhardt, 1986, p. 168).

تميّز إذن " جاك " عن غيره من جنود فرنسا، فتغيّرت نظرة الأهالي إليه، وسمح المبدأ أو الرّوح الإنسانيّة فيه بقبوله من قبل الجزائريين، الذين يدركون تماما مراتب العدو، ف" جاك " لن يصبح صديقا أو أخا للجزائريين مهما حدث، ولكنّ أخلاقه كسرت الكثير من الحواجز التي تعلّموها من دليل الاستعمار، صار يحسّ بالراحة وهو يتعامل مع المواطنين ويساعدهم، وهم بدورهم كانوا: " مطمئنين جرّاء شهرة الطّبيب

الطبيبة، وكانوا يبادلونه بالحديث خلال تنزهاته، يشوشون أحلامه على حصائر المقاهي ... " (eberhardt, 1986, p. 168).

استسهل "جاك" بل استلذ الحياة في الصحراء الساحرة بجمالها، إضافة إلى تأقلمه السريع مع سكّانها، الذين كثيرا ما كانوا يثيرون شففته حيث كانوا: "في الحقيقة أناسا مثل كلّ الناس، لا أفضل ولا أسوء من أناس آخرين فقط، وبالتحديد هذا ما كان يحبّ فيهم، أنهم كانوا مختلفين، لا يتميّزون بتلك الفجاجة الثقيلة التي طالما مقّتها بأوروبا. لم يعد أفق الرمل الرمادي المطوّق للمدينة الرمادية يشعني روحه مع اللامتناهي " (eberhardt, 1986, p. 176).

أبعد جاك الكثير من الصّور التي صنعها (الغرب/الشمال) عن (الشرق/الجنوب)، وأثبت احتكاكه بالسكّان عكس الكثير منها، بل صار الشرق محيطا يوقّر له ما عجز عنه العالم الغربي، فشكّلت قسوة الصّحراء الجزائرية ملاذا تتّحد فيه روحه المُرّهقة مع النقاوة، هي عبارات أرسلتها الكاتبة على لسان البطل لتقرّ بأنّ لكلّ مكان خصائصه ومميّزاته، ولكن هل هذا من قبيل الاعتراف بتمييز الآخر، أم أنّ ذلك مجرد أرضيّة تمهّد لتكيّف "جاك" بطريقة أخرى، فيرسم له هذا المكان لحظات من الصفاء يستنشق تعكّرها الجزائري لوحده .

تعرف فيما بعد بمومس ساهمت ظروف عديدة في الجمع بينهما إذ كان: "زوجها فلاحا فقيرا من قبيلة العشّاشين، توفي... وهي يتيمة ليس لها إلّا أخ يعمل سقاء بمدن التلّ الكبرى، ولم تكن تدري أين تذهب بالضبط، وبقيت وحيدة، وهذا يعني أنّ تستسلم للقنّاصين والفرسان المنخرطين في الجيش الفرنسي، كانت قد خرجت وشربت معهم الخمر، وعندما لم يرغب أحد فيها كزوجة لجأت إلى هنا، في منزل أخيها وعاشت مع عمّتها العمياء . ولكسب قوت يومها كانت تبيع جسدها، والآن تخشى من المكتب العربي... أن تخضع إليه " (eberhardt, 1986, p. 171).

توفي زوجها - غادر أخوها - فقر = الدعارة .

يبدو أنّ الفقر لا علاج له في قصص "إيزابيل" إلا الدعارة، "ياسمينه"، "مباركة" سلكتا الطريق نفسه تحت حجة الكاتبة "الفقر"، إذ انطلقت منه لتجعله ذريعة لرمي المجتمع الجزائري بأخطر السموم.

تبيع "مباركة" جسدها، تتخلّى عن شرف وشهامة المرأة الجزائرية فيها، والطّامة من بين مشتري جسدها أبناء جلدتها، تنكّروا في الأوّل للوطن فخانوه، ثمّ داسوا على شرف أبنائه فكانت الخيانة أعظم .

حاولت الكاتبة - كعادتها فيما سبق - ضرب عفاف وشرف المرأة الجزائرية، فألغت العادات والتقاليد والدين في تركيبها، وفي المجتمع الذي يحتضنها، أين عيونه من هذه المرأة وغيرها، ألا يكف البلاد أزمة المستعمر حتّى تغرق في آفات جُعِلت الحواجز بكثرة كي لا يتم وقوعها، أين عادات ونخوة الصّحراوي الذي عُرف بالمحافظة على الشرف، أين هذه المرأة من عراقة بنات جنسها، ويبدو أنّها تجنبت العربي باحثة على أحضان الغريب كما فعلت "ياسمينه"، ما سرّ هذا التصرف والتوجّه نحو المسيحي، أين رادع الدين، أم أنّ "مباركة" ملّت المقام مع عملاء فرنسا واستأنست بأبنائها . !!!

ادعى "جاك" حبّها فصار يستعملها لإرضاء نفسه، وأوهمها بحبّه الكبير فصدّفته، ولكن عندما جدّ الجد تركها في السّجن وغير هو المنطقة تاركا وراءه أنثى جريحة تعضّ أنملها حسرة بسبب الخداع. (eberhardt, 1986, p. 171.183)

كان المستعمر هكذا وستبقى حقيقته مرهونة بالدفاع عن مصالحه، والتضحية ستكون بالغير دائما، لأنَّ المبدأ هو "الدفاع عن المصالح .

3.2 . صورة تاسعديت:

واصلت الكاتبة رسم صورها السلبية للمرأة الجزائري، فعلى غرار "ياسمينه" و "مباركة"

جاءت "تاسعديت" ليكتمل مشهد الانحطاط والدونية الذي أصر الغرب على جعله لصيقا بالشرق .

تاسعديت ابنة الشاوية: رُؤيت من شيخ طاعن في السنّ عدم فيها إحساس الأنثى، حيث: "لم تحس أبدا بأيّ شعور وديّ ولا عاطفيّ اتّجاه زوجها الذي بقي بالنسبة إليها غريبا" . (eberhardt, 1986)

كان ذلك الوضع نتيجة للفارق الكبير في السنّ بينهما، وهو ما جعلها تترمّل في وقت مبكّ، وتخضع لطلب مومس قديمة وغنيّة بعد رفض مؤقّت لا شيء إلا لتحصل على الحبّ والمال، وعلى حدّ تعبير الكاتبة فجأة ولد بداخلها القرار كي تصبح مومسا، كان يعني الحرية الحبّ الثروة (eberhardt, 1986, p. 100).

سلكت "تاسعديت" الطّريق ذاته الذي ضاعت فيه كلّ من: "مباركة" و "ياسمينه"

4. 2 . صورة تاعليت :

تكرّرت المرأة المومس على صفحات "إيزابيل" لتضرب هذه الأخيرة أمثلة تحكي ضعفها وسلبيتها، ويتّضح ذلك أيضا من خلال قصّتها "تاعليت"، حيث كانت تعيش على حلم الزواج من "السّعيد (الزّقي)"، ولكنّه قُتل على يد مجموعة من اللصوص، لتتوالى الأحزان بعد ذلك، يموت والدها ولم تجد أمّها "زوينه" بُدا من الزواج مرة ثانية، وتنتقل وابنتها مع زوجها التاجر إلى الجزائر، وبعدها فُقرّر تزويج "تاعليت" إلى شريك زوج أمّها، كان شيخا قبيحا، وبعد جدال طويل معها لأنّها رفضت أقنعت بهذا الزواج تحت ضرب وقسوة زوج أمّها، وبعد أن تزوّجت ليلة زفافها اختارت أن تُزفّ إلى بئر القصبه . (eberhardt i. , p. 79.80)

الخاتمة:

سعيينا منذ بداية هذه الدراسة الى معرفة حقيقة التصور الغربي للإنسان الشرقي بصفة عامة، وللمرأة الجزائرية على وجه الخصوص، وكانت النتائج كالتالي:

. أظهرت الكاتبة تحيزها المطلق للعرق الغربي القائم على أفضلية الغرب على الشرق على كل المستويات.

. حاولت الكاتبة تأكيد تبعية الشرق للغرب ، وهوسه به من خلال حرصها على تأكيد النزعة الانسانية والحضارية للمواطن الغربي ، وتعلق الجزائريين به.

. ركزت الكاتبة على المرأة الشاوية والقبائلية والصحراوية، علما أن نساء هذه المناطق يكن أكثر التزاما من نساء المدينة، وحرصت على إضفاء سمة المومس عليهن ، لتبث للعالم فساد المجتمع الجزائري، وأن اكتساب قوتهم يعتمد على دعم فرنسا أو التجارة بالشرف، وكأنها تريد أن تقول بأن الجزائريين لاجمال لهم للعيش حياة كريمة الا في ظل فرنسا.

. أبرزت الكاتبة المراة الجزائرية ضعيفة مستسلمة لأمراض المجتمع، فكانت نماذجها بين ضياع في بيوت الدعاة وبيع للجسد والانتحار، لتقتل فيهن الروح الأثوية السليمة، والنزعة الثورية التي حملت لوائها نساء كثيرات - من أبرز الأمثلة على ذلك أم البنين زوجة الأمير عبد القادر، التي شكلت القاعدة الخلفية لجيوش المقاومة، كما كانت تقوم بالإشراف على المستشفيات المتنقلة، ولا ننسى في هذا المقام أيضا دور القائدة المجاهدة لالا فاطمة نسومر التي تصدّت لجيوش (ران دون) الزاحفة على جبال جرجرة، وكبدتها أفدح الخسائر وأقبح الهزائم حتى فجر الاستقلال، ولا يجب أن يثير ما ذهبت إليه الكاتبة اندهاشنا بالقدر الذي يؤكد لنا فيه نزوع الغرب الدائم إلى التركيز على مواضيع تضيع إثرها إمكانات تميز الشرق، فلا يجب أن ننتظر من الغرب إلا ذلك، وإن بدا منه غيره فعلى التدقيق في الدوافع وتمحيصها، حتى لا يعثب بنا زخرف اللفظ والأعماق نار في الهشيم، وإن أعجبت "إيزابيلا" بطبيعة الجزائر، فربما لأنها شكلت إقليما مختلفا يصلح لمغامرات جديدة وممتعة، لا يحققها إلا الشرق "الطبيعة".

. أثبتت الكاتبة ان الاستعمار لا يكون الا باغتصاب الأرض والعرض، مادام المستعمر يعتبر الأرض وما عليها مباح له، وكأن تريد القول بعدم أحقية هذه الشعوب بأراضيها.

. توضّح النماذج التي تمّ التعرّض لها، أنّ أبطال الكاتبة كانوا جنودا، دعاة للإنسانية، بل إنهم فضاء لا مثيل له للتمتع بالحب، والاهتمام بصحة الجزائريين، أمور تحيلنا إلى المحاولة المقصودة لإظهار المستعمر في ثوب حضاري، فكان بإمكانها أن تجعل الأبطال من الشعب، ولكن لا لأنّ الشعب قد لا يعبر عن فرنسا بقدر ما يعبر عنها الجهاز العسكري، على كلّ هذا مجرد زاوية ضيقة من الموضوع، والذي بدوره يحتاج إلى نواح أخرى تقويه.

. عملت الكاتبة على دعم الخارطة التاريخية للعالم التي جعلها الغرب منفذا قسم فيه العالم الى غرب متحضر وشرق متدنّي، فلم تستطع التملص من النظرة الدونية التي يقرها عرفها الغربي.

المراجع العربية:

- البير ميمي: صورة المستعمر. a . n . e . p (رواية , الجزائر). 2007م .
- برهان رزيق: المرأة في الإسلام قراءة معاصرة. دار كنعان (دمشق. سوريا). 2001م .
- بيبير برونيل ، و أ.م. روسو. كلود بيشوا: الأدب المقارن تر: عبد المجيد حنون، نسيم عيلان، عمار رجال، عناية منشورات مخبر الأدب العام والمقارن: الجزائر. 2005م.
- جان نعوم طنّوس. صورة المومس في الأدب العربي. دار المنهل اللبناني (بيروت، لبنان). 2006م.
- جمانة محمد عبيد. (بلا تاريخ). موسوعة روائع أقوال الفلاسفة في المرأة.
- جورج طرابيشي.. شرق وغرب، ذكورة وأنوثة. دار الطليعة (بيروت . لبنان). 1997م.
- عابدة أديب بامية. (بلا تاريخ). تطوّر الأدب القصصي الجزائري 1925- 1967م. ديوان المطبوعات الجامعية.
- ماجدة حمّود. . مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، سوريا: منشورات اتحاد كتّاب العرب، سوريا. 2000م
- محمّد الدعمي. . الاستشراق الاستجابية الثقافية الغربية للتاريخ الغربي الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت، لبنان). 2006م
- محمّد راتب الحلاق: نحن و الآخر، اتحاد الكتّاب العرب (دمشق، سوريا). 1997م

- محمد نجيب بوطالب. (بلا تاريخ). العلوم الاجتماعية والاستشراق: صورة المجتمع العربي الإسلامي، صورة العربي ناظرا ومنظورا إليه.
- يوسف و غليسي. (مناهج النقد الأدبي، جسر: الجزائر. 2009م

المراجع الأجنبية:

- eberhardt, I). *yasmina et autres nouvelles algeriennes*. paris: liana levi.1986
- eberhardt, i. (s.d.). *l'écriture de sable*.
- pageaux:, D. h. *la littérature général et compare*. france: armand colin.1994.